البنية السردية
ببن المقامة الأندلسية والمقامة المشرقية
- دراسة موازنة -

د. عامر عنيف منفي خليفه الخليفاوي
المديرية العامة لتربية الأنبار

The narrative structure between
Andalusian and Eastern maqamat: A comparative study

Dr. Amer Anif Manfi Khalifa Al - Khalifawi
General Directorate of Education in Anbar

الخلاصة

يُعدُ فنُ المقاماتِ من الفنونِ الأدبيةِ التي أخذتْ تطورهَا في الآدابِ العربية ومن أبرز الأجناسِ التي ازدهرت ازدهاراً كبيراً في الأدب العربي، لما تمتاز من امتزاج بين اللغة الفصيحة والبراعة البلاغية وبين السرد والحوار وبين الحكمة والطرافة، فأن أول من كتبها بديع الزمان الهمذاني فهي نشأت على يده في المشرق العربي وجاء الحريري لاحقاً وتطورت علي يديه، حتى انتقلت إلى الأندلس فكانت لها تميز وخصوصية ينبع من البيئة الأندلسية الاجتماعية والسياسية والثقافية المختلفة. فأن دراسة البنية السردية في المقامة الأندلسية والمقامة المشرقية دراسة مهمة لفهم التحولات التي طرأت على بناء المقامة، ليس في المضمون فقط بل من جميع النواحي من الأسلوب أو الشكل أو التقنيات السردية التي يعتمد عليها الكاتب في البنية السردية، والتي تمثل عناصر التنظيم الفنية لهذا الفن من عناصر أطار داخل المقامة من الشخصيات إلى مكان وزمان، التي عن طريقها يأخذ الكاتب الإمكانية المعتدة والتي يعبر عن رؤيته الفكرية والجمالية لديه. تهدف هذه الدراسة إلى بيان الفرق بين المقامة الأندلسية والمقامة المشرقية عن طريق الموازنة بينهما للتوصل إلى كشف أوجه الاختلاف والاتفاق بين النموذجين، وكذلك الكشف عن مدى تأثير فن المقامة بطبيعة البيئة الثقافية التي تكتب فيها، وكذلك بيان تطور العناصر السردية في المقامة الأندلسية واقترابها إلى أساليب السرد القصصي الحديثة، فقد ظهرت أهمية هذه الدراسة في الكشف عن التحولات في المقامة من الخطاب البلاغي الترفيهي في المشرق إلى بناء سردي له أبعاد ثقافية واجتماعية أعمق في الأندلس من المشرق، والذي يعكس على هذا الفن الحيوية وتجعل له القدرة على التكيف مع المتغيرات الحضارية.

abstract:

The art of maqamat is considered one of the literary arts that evolved in Arabic literature and is one of the most prominent genres that flourished greatly in Arabic literature, due to its blend of eloquent language, rhetorical brilliance, narration, dialogue, wisdom, and humor. The first to write them was Badi' al - Zaman al - Hamadhani, and they originated under his influence in the Arab East. Al - Hariri later developed them further until they transitioned to Andalusia, where they gained a distinctiveness and uniqueness stemming from the different social, political, and cultural environment of Andalusia. Therefore, studying the narrative structure in Andalusian maqamat and Eastern maqamat is important for understanding the transformations that occurred in the construction of maqamat, not only in content but from all aspects such as style, form, or the narrative techniques employed by the author in the narrative structure, which represent the artistic organizational elements of this art, from elements of characters to time and place, through which the author gains the necessary capacity to express his intellectual and aesthetic vision. This study aims to highlight the differences between Andalusian maqamat and Eastern maqamat by comparing them to reach the conclusions. This study reveals the differences and agreements between the two models, as well as uncovering the extent to which the art of maqama is influenced by the nature of the cultural environment in which it is written. It also highlights the evolution of narrative elements in Andalusian maqamat and their approach to modern narrative techniques. The importance of this study lies in revealing the transformations in maqama from the rhetorical entertainment discourse in the East to a narrative structure that has deeper cultural and social dimensions in Andalusia compared to the East, reflecting the vitality of this art and its ability to adapt to civilizational changes.

مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 4 | العدد 42
www.isscj.edu.iq

Journal of Islamic Sciences
Vol.4 | Issue 42
ISSN: 2225-9732

March 2026

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آلة وصحبه أجمعين.

وبعد؛

أخذ مصطلح البنية السردية مجالاً واسعاً في الدراسة النقدية الحديثة، فقد برزت أهميتها عند للغويين والنقاد، فكان لهذا المصطلح أهمية كبيرة في الأعمال الأدبية، وذلك لدقته وأهميته في نباء النصوص الحكائية، فقد توجب علينا الوقوف ولمعرفه معنى هذا المصطلح في معاجم اللغة والإفصاح عن معناه اللغوي عند اللغويين ومعناه الاصطلاحي عند الأدباء والبلاغيين: - البنية في اللغة: نجد مفهوم البنية في اللغة هو (((بَنَيَ) الباءُ والنونُ والياءُ أَصلٌ واحدٌ، وهو بناءُ الشيء بضمِّ بعضهِ إلى بعضٍ. تقولُ بنيتُ البناءَ أَبنيه [١].

فقد وردت في لسان العرب هذه اللفظة بمعنى ((البنى، نقيض الهدم، بنى، البناء، البناءَ بنيا وبناءُ أو بنى مقصورة وبنياناً وبنية وبناية وابتناه وبناه))[٢].

فتعني في اللغات الأوربية الاشتقاق من الأصل اللاتيني، فهنا البنية تعني الطريقة أو البناء التي يقوم بها مبني ما، حتى أخذ هذا المفهوم الامتداد وأصبح يشمل وضع الأجزاء في مبني ما وجهة النظر الفنية المعمارية وبما يؤدي إليه من جمال تشكيلي. [٣].

أما في الاصطلاح: فقد تطرق إليها عبد القاهر الجرجاني في قوله بأن البناء في النصوص الأدبية هو إقامة علاقات وثيقة تربط بين الألفاظ ومعانيها، وكل جزء مكمل في المعنى إلى الجزء الآخر فقد أشارَ إلى أن ((لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض)) [٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس الرازي، (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: ١/ ٣٠٢، باب (بَنَيَ).

(٢) لسان العرب، باب الباء، ابن منظور، دار الصادر بيروت، لبنان , ١٩٩٧م: مادة بنى.

(٣) ينظر: النظرية البنائية في النقد الأوربي، صلاح فضل، دار الشرق – القاهرة، ط١, ١٩٩٨م: ١٢٠.

(٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، القاهرة، الناشر مكتبة الخاتجي القاهرة , ١٩٦٩م: ١٩٧.

فقد وردتُ لهذا المصطلح تعريفات كثيرة منها ((هي آلية للدلالة، وديناميكية لتجسيد الدلالة في سلسلة من المكونات الجذرية والعمليات، وفي التفاعلات التي تتكامل لتحول اللغة بمعناها الواسع إلى نسبة معقدة تجسد البنية الدلالية تجسيداً مطلقاً في اكتماله)) (١).

فأن نقاد الادب الحديث لم يتركوا هذا المصطلح فقد تطرقوا إليه ومنهم (دي سويسر) فورد له تعريف بقوله هو ((النظام الذي يتشكل من تفاعل عناصره، وهذا التفاعل يولد الانسجام والتماسك بين العناصر ويسمح للبنية بأن تؤدي دورها داخل المنظومة السيميائية))(٢).

فان البنية تدل على النسيج الذي تحاك منه النصوص الحكائية والتي تجعل أجزائهُ متماسكة لا يمكن أن يصيبها الخلل أو التفكك، فتعرف بأنَّ ((البنية هي شبكةُ العلاقات التي تتولَّد من العناصر المختلفة للكل، فضلاً عن علاقة كل عنصر بالكل، وإذا عرّفنا السرد مثلًا بأنَّه يتألفُ من القصة و الخطاب، فإن البنية ستكون شبكة العلاقة الحاصلة بين القصة والخطاب والقصة والسرد والخطاب والسرد))(٣).

عن طريق ما تقدم تبرز أهمية البنية في النصوص الحكائية والأدبية لتكون هذه النصوص متماسكة فيما بينها، وتحتوي على نسيج محكم داخل هذه النصوص مما تجعل المتلقي يتأمل بناء هذا العمل المنظم فيه الفكرة الموحية والتصوير الذي يوحي إلى التأمل الفكري والتصوري في توالي الأحداث بعضها إلى بعض.

مفهوم السرد في اللغة والاصطلاح: - إنَّ هذا المفهوم له نصيب في اللغة فهو ((تقدمة شيء إلى شيء ما منسقا بعضه في أثر بعض متتابعاً، وسرد الحديث ونحوه يسرده إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سرداً، أي يتابعه ويستعجل فيه، وسرد القرآن تابع قراءته في حذر منه)) (٤).

وكذلك ورد معناه في اللغة (((سرد) السَّرْدُ في اللغة تَقْدِمَةُ شيءٍ إلى شيءٍ تأْتي به متَّسقًا بعضُه في أَثر بعض متتابعًا سَرَد الحديث ونحوه يَسْرُدُه سَرْدًا إِذا تابعه وفلان يَسْرُدُ الحديثَ سردًا (٥).

(١) بنية الحكاية في كتاب البخلاء للجاحظ، عدي عدنان محمد، ط١، عالم الكتب الحديث، العراق، ٢٠١١م: ٣٨.
(٢) الرواية العربية وتحولات السرد، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان، ط١، ٢٠١٢م: ٦.
(٣) معجم المصطلحات (المصطلح السردي)، جيرالد برنس، ط١، ترجمة: عابد خزندار، مراجعة: محمد بريرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م: ٢٢٤.
(٤) لسان العرب، ابن منظور: ١٦٥.
(٥) المصدر نفسه: ٣/ ١٩٨٧ مادة (سرحب).

أما مفهوم السرد في الاصطلاح: فيعرفه النقاد القدامى فهو عند (ابنُ رشيق القيرواني ت: ٤٦٣ هـ) ((ومن الناس من يستحسنُ الشعرَ مبنيًا بعضَه على بعض، وأنا أستحسنُ أن يكونَ كلُّ بيتٍ قائمًا بنفسه لا يحتاجُ إلى الترابط فيما قبلَه ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير، إلَّا في مواضعٍ معروفةٍ، مثلُ الحكايات وما شاكلها، فإنَّ بناءَ اللفظ على اللفظ أجودُ هنالك من جهة السرد)) (١).

فنجد هذا المفهوم الأدبي متصل بالنثر، فهو الذي تظهره عناية الكاتب الفكرية للنصوص، فيكشف هذا الأسلوب عن فكر صاحبه ونفسيته، فنجد (سعيد يقطين) يعرفهُ بقوله((فعل لا حدود له، يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية، يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان)) (٢).

ويعرفه النقاد الغربيون فيقول عنه (تودوروف) ((إنَّ المهمَّ عند مستوى السردِ ليس ما يروي من أحداثٍ بل المهمُّ هو طريقةُ الروي في اطلاعنا عليها، وإذا كانت جميعُها تتشابهُ في رواية القصة الأساسية، فإنَّها تختلفُ بل تصبحُ كلُّ واحدةٍ فريدة من نوعها على مستوى السرد، أي: عن طريق نقلِ القصة))(٣).

أما عناصر ومكونات العمل السردي فهي:

١ - الراوي.

٢ - المروي.

٣ - المروي له.

الـراوي: - ((هـو الشـخص الـذي يـروي الـحكـاية، أو يخبر عنـها، سـواء كـانـت حقيقة أم متخيلة)) (٤).

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابها، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني(المتوفى: ٤٦٣ هـ): ١ / ٢٦٢.

(٢) الكلام والخبر (مقدمة السرد العربي). سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء: ط١, ١٩٩٧م: ١٦٩–١٧٠.

(٣) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نعمان بوقرة، جدارا للكتاب العالمي، عمان - العبدلي - جوهرة القدس، ط١, ٢٠٠٩م: ١١٧.

(٤) السردية العربية - بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي -، د. عبد الله إبراهيم، الناشر: المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م: ١١.

المروي: - وهو من مكوناتِ العمل السردي يأتي في المرتبة الثانية بعد الراوي في الأهمية ولا تقل أهميته عن أهمية الراوي في تكوين العمل السردي.

المروي له: - وهو المتلقي أو المقابل الذي يقدم له العمل الحكائي فيقول عنه (جيرالد برنس) ((أن السرد بأسره سواء أكان شفويا ام مكتوبا، وسواء أكان يروي وقائع حقيقية ام اسطورية، وسواء أكان يحكي قصة ام يروي سلسلة بسيطة من الأفعال في وقت محدد، لا يفترض فقط على الأقل راويا معيناً، بل يفترض، ايضا على الأقل مرويا عليه معيناً، فالمروي له هو شخص ما يخاطبه الراوي)) [١].

أما اساسيات العمل السردي فعددها (بياجيه) اساسيات ثلاث بقوله ((إن البنية تنشأ من خلال وحدات تتقمص أساسيات ثلاثة هي (الشمولية، التحول، التحكم الذاتي)))[٢].

فتوصلنا عن طريق ما تقدم بأن البنية السردية دورها في النصوص الحكائية هي مجرد نسق من التحولات التي لها الاختلاف داخل النظام الذاتي باستمرار، وفي داخل النصوص وتظهر أهميتها في النصوص الحكائية عن طريق التماسك والترابط بين أجزاء هذه النصوص الحكائية ولا يمكن تجزئتها.

مفهوم المقامة ونشأتها: - أنَّ مفهوم المقامة في لسان العرب بأنَّه ((المقام موضع القدمين، والقيام نقيض الجلوس قام، يقوم، قوما وقياما، وقامة، والقومة: المرة الواحدة، والمقام الموضع الذي تقيم فيه، والمقامة: الإقامة و المقامة بالضم: الإقامة بالفتح المجلس والجماعة من الناس))[٣].

أما مفهوم المقامة في الاصطلاح فهي ((قصة قصيرة مسجوعه تتضمن عظة أو ملحمة أو نادرة، كان الأدباء يتبادرون في كتابتها إظهارا لما يمتازون به من براعة لغوية وأدبية)) [٤].

(١) نقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، حرير: جين - ب - تومبكنز، ترجمة: حسن ناظم - علي حاكم، المجلس الاعلى للثقافة، ط١، ١٩٩٩م: ٥١.

(٢) الخطيئة والتفكير من البنية إلى التشريحية، محمد عبدالله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط٤, ١٩٩٨م: ٣٣.

(٣) لسان العرب، مادة قوم: ٥ / ٣٤٥.

(٤) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، كامل المهندس وآخرون، مكتبة لبنان ساحة الصلح، بيروت، ط٢ ,١٩٨٤م: ٣٧٩.

وقد امتازت المقامة بالأسلوب الذي تقدم فهي تقدم بأسلوب سردي حكائي يهدف إلى بيان الغرض الذي تدور حوله الأحداث، فيغلب عليها أكثر الأحيان الطابع الساخر والفكاهة فقد تصل في بعض الأحيان إلى التفاهة والسخف. فشاع هذا الفن النثري في مجالس الخلفاء والحكّام والقضاة واتخذ منه وسيلةً لإبداء النصح، والموعظة، فستخدم السجع فيه، فهي تقترب من الشعر في نظمها، وعلى كاتب المقامة يجب أن ((ينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فيوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات ؛ فيجعل لكلّ طبقة كلاما، ولكلّ حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات. واعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال ؛ فإن كنت متكلّما، أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخطّ ألفاظ المتكلمين، مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر، فإنّ ذلك هجنة)) [١]. أن هذا المفهوم يأخذ معانٍ كثيرة ودلالات حتى وصلت إلى الفنون النثرية التي يقدمها الكاتب في مجلس واحد فهو يقوم بقص حكاية تدور أحداثها حول أمور المجتمع لها أهمية فيه حتى يحصل على القبول في المجلس، وتكون طريقة تقديمه سردية وحكائيه طابعها السجع الذي يغلب عليها وتصل لوحتها الفنية إلى الاكتمال، فكان شيوع هذا الفن في الأدب الأندلسي قد أخذت ذروتها وشيوعها فيه. ومن هذا الإبداع سيكون البحث عن نشأة فن المقامات.

تأكد المصادر والمراجع على أن فن المقامة كان له جذور في الأدب العربي في نشأته فقد قيل أن أول من كتب فيه هو بديع الزمان الهمذاني وتأكد المصادر على أن ((البديع هو الذي سبق الحريري إلى نظم المقامات، وسبك العلوم في تلك القوالب الغريبة، وعلى منواله نسج الحريري، واستعمل بعض أسماء مقاماته، وقفى أثر عيسى بن هشام الحارث بن همام، وعارض طرح الإسكندري بما نسجه أبو زيد السروجي))[٢]. وكذلك تأكد المصادر الأندلسية على أن نشأة المقامة في الأدب العربي وهذا ما وجد فيها أن ((وصلت الأندلس مقامات بديع الزمان

(١) البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) , دار ومكتبة الهلال، بيروت ,: ١٤٢٣هـ: ١ / ١٣١.

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: ٨٣٧هـ) , المحقق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال - بيروت، دار البحار - بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م: ١ / ٢٩٥.

ورسائله، وكان من أول المتذوقين لها الناسجين على منوالها ابن شهيد، واكثر ما أعجبه فيها تلك القطع الوصفية؛ ولذلك انشأ على مثالها قطعاً في وصف الماء والبرغوث والثعلب والحلوى. وعرضت على أبي المغيرة ابن حزم رسالة لبديع الزمان في الغلام الذي خطب إليه وده بعد أن عذر فعارضها بآخرى، ولكن يبدو أن الاهتمام بمعارضة المقامات لم يكن غرضا للكتاب حينئذ، بل إن الاهتمام بمقامات الحريري حين ظهرت كان أشد، إذ أقبل الكتاب على معارضتها ومنهم ابن شرف القيرواني، ولعل سر ذلك راجع إلى الصلة بين بعض الأندلسيين والحريري، فقد وجد منهم من سمع منه مقاماته، ومن هؤلاء أحمد بن محمد بن خلف الشاطبي)) [1].

فقد أخذ الأدباء والكتاب على منوال بديع الزمان الهمذاني في كتابة فن المقامات حتى حضى بالتطور في العصور الأدبية، وأصبحت فناً أدبياً له الشأن بين الفنون الأدبية، وقد كان لكتاب المقامات أهداف يحرصون على تحقيقها في كتابة هذا الفن من هذه الأهداف: - (هدف تعليمي - موسوعة علمية - إطار قصصي - الحادثة – السرد – البناء – الشخصية – الأسلوب), وقد تكون هناك أهداف شخصية عند الكتاب والأدباء في كتابة المقامة فمنهم من حرص في كتابتها على هدفهم التسلية والإضحاك والهزل والتعليم والوصف والطعن في الأدباء ومحاولة الانتقاص من أقدارهم والتشكيك في براعتهم. والتهذيب وهو غير التعليم، ومنهم من حرص في كتابتها على أنها البراعة الأدبية والقدرة الفنية العالية، وهذا الهدف كان علمياً لدى غالبية كُتّاب فن المقامات.

وقد تختلف مميزات المقامة في الأندلس عن المقامة في المشرق فأن من لمسات المقامة البارزة في الأندلس الصورة الفنية في المقامة الأندلسية فقد ((استطاع هؤلاء الفنانون أن يبدعوا لوحات نابضة بالبنيوية والحركة، فمزجوا فيها بين أبرز وسيلتين من رسائل التشبيه والاستعارة، واستطاعوا أن يتخيروا أكثر أنواعها إيحاءً لتكون صورهم أكثر إشارة))[2]. أما تميز المقامة الأندلسية بالجانب الموسيقي فقد ((اعتنوا بموسيقى مقاماتهم عناية كبيرة واستطاعوا أن يتفننوا

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) , دكتور إحسان عباس (ت: ١٤٢٤هـ) , دار الثقافة، بيروت – لبنان, ١/ ٣٠٣.

(٢) فن المقامات الأندلسي – نشأته وتطورة وسماته، د. قصي عدنان سعيد الحسيني، دار الفكر، ط٢ , عمان – الأردن ,١٩٩٩م: ١٤٢.

في استخدام أنواع البديع التي تخدم بنية مقاماتهم الصوتية)) [١]. فقد وصل كتاب المقامات الأندلسية إلى ((بروز الطابع الاجتماعي في المقامات الأندلسية أكثر منه في المقامة المشرقية والارتباط الوثيق بين المقامة الاجتماعية، فكانت صورة لذلك الواقع))[٢]. وسنلاحظ المميزات لكل مقامة عند دراسة الموازنة بين المقامة الأندلسية والمقامة المشرقية عن طريق نماذج منهما وتحليل عناصر ومكونات كل مقامة.

المبحث الأول: البنية السردية في عنصر الشخصيات في المقامة المشرقية والمقامة الأندلسية

تعد الشخصية من عناصر البناء السردي المهمة فهي جزء من هذا البناء لا يمكن الاستغناء عنها، فإن الشخصية ((هي كل مشارك في أحداث الحكاية، سلباً أو ايجاباً، أما من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشخصيات، بل يكون جزءاً من الوصف، فهي عنصر مصنوع، ككل عناصر الحكاية، فهي تتكون من مجموع الكلام الذي يصفها، ويصور أفعالها و وينقل أفكارها وأقوالها)) [٣]. إما دور الشخصية في العمل الحكائي فهي ((تؤدي دوراً مهماً في تحريك الأحداث وانجازها من خلال أقوالها وأفعالها، لكن هل لجميع الشخصيات الروائية الدور نفسه في تفاعلها مع الأحداث؛ إن الشخصيات ليس لها الدور نفسه في تفاعلها مع الأحداث، ذلك أن في كل رحلةٍ شخصٌ أو أشخاصٌ يقومون بدور رئيس فيها، إلى جانب شخصيات أخرى، ذات دور ثانوي أو أدوار ثانوية)) [٤]. وسنبين الدور الذي تأديهِ الشخصية في المقامة المشرقية وفي المقامة الأندلسية.

اولاً: - الشخصية السردية في المقامة المشرقية:

نجد البناء السردي للشخصية في المقامة المشرقية عند الكتاب المشرقيين له صياغة خاصة في مقاماتهم وهذا ما نلاحظه في مقامات بديع الزمان الهمذاني التي كتبها منها في المقامة القريضية الذي يقول فيها ((حدثنا عيسى بن هشام قال: طرحتني النوى مطارحها حتى إذا

(١) المصدر نفسة: ١٤٣.
(٢) المصدر نفسة: ١٤٤.
(٣) معجم مصطلحات نقد لرواية، د. لطيف زيتوني، ناشرون، بيروت – لبنان، ط١ , ٢٠٠٢م: ١١٣ - ١١٤.
(٤) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت – لبنان، ةط١ , ١٩٨٢م: ٦٠.

وطئت جرجان الأقصى. فاستظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها يد العمارة. وأموال وقفتها على التجارة. وحانوت جعلته مثابة. ورفقة اتخذتها صحابة. وجعلت للدار. حاشيتي النهار. وللحانوت ما بينهما. فجلسنا يوما نتذاكر القربض وأهله وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم ويسكت وكأنه لا يعلم. حتى إذا مال الكلام بنا ميله. وجر الجدال فيناذيله. قال: قد أصبتم عذيقه. ووافيتم جذيلها، ولو شئت للفظت وأفضت، ولو قلت لأصدرت وأوردتُ، ولجلوت الحقَّ في معرض بيان يسمع الصم وينزل العصم. . . (١).

يبين الكاتب المشرقي في هذه المقامة بنية الشخصية السردية ويظهر طبيعتها بطريقة فنية معقدة، تتكامل فيها الشخصيات وتخدم غاية النقد الاجتماعي التهكمية. فقد وردت الشخصية الرئيسة وهس شخصية (عيسى بن هشام) فقامت هذه الشخصية بدور الراوي الخارجي ووسيط بين الأحداث والمتلقي للمقامة، فكانت سمات هذه الشخصية هي الشخصية العاقلة، المتأملة، المتفاعلة أحياناً، لكنها تلتزم الحياد غالباً، فهذه السمات تجعل وظيفة الشخصية السردية تكون في الإطار العام للمقامة وموقع الحكاية، فهي تنقل الأحداث من منظور المشاهد. ومن ثم يذكر الكاتب شخصية أخرى في قوله (وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد) فهو يقصد بهذه الشخصية شخصية أبو الفتح الإسكندري هو الشاب الجالس، فهي شخصية مركزية في الحدث، فهذه الشخصية تقدم نفسها بهدوء في البداية، ثم تفاجئنا في اسلوبها في الكلام من فصاحة وشعر. فإن شخصية أبو الفتح تتجلى فيها ثنائية مركبة وتجمع هذه الشخصية بين البراعة الأدبية والحيلة الاجتماعية. فتقابل هذه الشخصية شخصية الراوي الذي يضفي طابعاً واقعياً على السرد، والجمهور الذي يكشف عن قابلية الناس للانخداع بالمظاهر.

توصلنا إلى إن الشخصيات عند الكاتب المشرقي لا تقدم في المقامة المشرقية كأدوات في الحكاية فقط، بل تحمل دلالات اجتماعية عميقة حول علاقة الفرد بالمجتمع، وقيمة الأدب، وأزمة الصدق والمظهر، فينتج هذه الصفات بطريقته الخاصة والتي توافق الأسلوب الحكائي في الأدب عند الكاتب.

يتضح البناء السردي للشخصية في المقامة المشرقية عند الحريري في كتابته للمقامة التي كتبها بعنوان المقامة الكوفية، إذ يقول فيها ((قال الحارثُ بنُ هَمّامٍ: فلمّا خلَبَنا بعُذوبَةِ نُطقِهِ.

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب، المؤلف: رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو (المتوفى: ١٣٤٦هـ) , لناشر: مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت , ١٩١٣ م: ٧٥/٥.

وعلِمْنا ما وَراء برْقِه. ابتَدَرْنا فتْحَ البابِ. وتلَقّيناهُ بالتّرْحابِ. وقُلْنا للغُلامِ: هيّا هَيّا. وهلُمّ ما تَهيّا! فقالَ الضّيفُ: والذي أحَلّني ذَراكُمْ. لا تلَمّظْتُ بقِراكُمْ. أو تَضْمَنوا لي أنْ لا تتّخِذوني كَلاًّ. ولا تجَشّموا لأجْلي أكْلاً. فرُبّ أكْلَةٍ هاضَتِ الآكِلَ. وحرَمَتْهُ مآكِلَ. وشَرُّ الأضْيافِ مَنْ سامَ التّكليفَ. وآذَى المُضيفَ. خُصوصاً أذًى يعْتَلِقُ بالأجْسامِ. ويُفْضي الى الأسْقامِ. وما قيلَ في المثَلِ الذي سارَ سائِرُهُ: خيرُ العَشاء سَوافِرُهُ. إلا ليُعَجَّلَ التّعَشّي. ويُجْتَنَبَ أكْلُ اللّيلِ الذي يُعْشي)) (١).

يظهر الكاتب المشرقي في هذا النموذج من المقامة المشرقية البناء السردي للشخصية التي يوظفها الكاتب الحكائي في أسلوبه للكتابة في المقامة المشرقية، فقد جعل الشخصية السردية شخصية محايدة تستعمل لضبط الإيقاع السردي ويكتمل فيها البناء الهيكلي للمقامة، وهذه الشخصية هي شخصية (الحارث بن همام) فعن طريق هذه الشخصية ينقل الكاتب صورة الشخصية إلى المتلقي بأنها البطلة المتنكرة، والحكيمة، بهيئة الخطيب المتكلم البارع الذي يثير الإعجاب، فقد بدأ الكاتب بهذه المقامة بالسرد الخارجي من شخصية الحارث ثم انتقل إلى الخطبة التي تقدمها الشخصية. فبعد هذه الصفات التي اظهرها الكاتب للشخصية السردية نلاحظ أن هذه المقامة تمثل الشخصية السردية وهي (الحارث بن همام) هي شخصية ثابتة تتكرر عند الحريري في جميع مقاماته، وهذه الشخصية هي التي تقوم بدور الراوي بضمير للتكلم عند الحريري، فتعد هذه الشخصية ناقله للأحداث وتلاحظ المواقف دون أن يكون لها تأثير، مما يجعلها راوياً خارجياً ومشاركاً محدوداً في الفعل الماضي. فتظهر وظيفة السرد عند الكاتب في هذه المقامة عن طريق تقديم الشخصية المحورية من خلال عينيه، فقد منح النص الحكائي توازناًبين السرد والوصف، وبين الخداع الفني والتأمل الاجتماعي.

فنلاحظ عن طريق هذا البناء السردي بأنَّ الشخصية السردية في هذه المقامة عند الحريري هي شخصية (الحارث بن همام). وهي الشخصية الروائية التي تقوم بإدارة الأحداث الروائية التي وظفها الحريري بهذه المقامة، فهي شخصية لها الدور في انتاج الحدث.

ثانياً: - الشخصية السردية في المقامة الأندلسية:

الشخصية السردية عند كتاب المقامة في الأندلس لهم صياغة في توظيفها، فهي تختلف في أدوارها في البناء السردي باختلاف المواقف وتباين نقلها، بحسب تقديمها وتباعاً للأثر الذي

(١) مقامات الحريري، المؤلف: أبو محمد القاسم بن علي الحريري (المتوفى: ٥١٦هـ) , الناشر: مطبعة المعارف، بيروت: ١٨٧٣ م: ٤٩.

تتركه من هذه المواقف والذي يجمعهما فـ ((الشخصية مهما اختلفت وتنوعت فإنها مضمون يفرض شكله الخاص)) ([1].

نلاحظ البناء السردي الذي يصيغه لسان الدين بن الخطيب للشخصية في مقاماته، إذ يوظفها بأسلوبه الحكائي في قوله ((وقدمت بين يدي وصولي إلى مراكش، المخاطبة إلى عميد تلك الرقعة، صدر هذه الحدود القصور، والدهاء الذي لا يسبر غوره، والمعروف الذي لا يتجاوز محال الضرورة حكمته)) [2].

يقدم الكاتب شخصية سردية في حكايتهِ تحمل القيم الإنسانية، فيمكن ابرازها عن طريق ما تحمله من هدف أخلاقي وأفعالها، فأفعال الشخصية ذاتها يجب أن تكون مختلفة بما فيه الكفاية لكي تبرز بياناتها، في العمل الحكائي، ومتشابهة بما فيه الكفاية لكي نعرف الشخصية الحكائية، بمعنى آخر التشابه هو كلفة الشخصية والاختلاف هو قيمتها [3]. فقدم الكاتب شخصية (عامر بن محمد علي الهنتاني) شخصية سردية تاريخية ذات خلفية علمية وثقافية غنية. وعن طريق النظر إلى الشخصية السردية عند الكاتب الحكائي يمكن ملاحظة طريقة تناول الشخصية السردية وتقديمها في النص الحكائي، بأن ابن الخطيب قدم هذه الشخصية من ناحية تركيزه على الجوانب الفكرية والعلمية، فهو يذكر هذه الشخصية في كتاباته السردية لمكانتها الكبيرة فهي تعتبر شخصية رئيسة في حكاياته عن طريق مكانتها العلمية ومجالها الفقهي الذي تأثره فيه. فقد اشتغلت هذه الشخصية في منصبٍ سياسي فعلى صعيد المكانة السياسية فأن لها تأثير مما جعل الكاتب يعطيها الأهمية الكبيرة لتحليل دور الشخصية الرئيسة. أما من جانب السلوك والأخلاق في المجتمع فكان تقييم الكاتب لها كبيراً لأنها تلتزم بالقيم والأخلاق الإسلامية التي جعلت الكاتب يحرص على التمسك بها وتكليفها بإدارة الأحداث الروائية في نصوصه الحكائية.

(١) الرواية والتاريخ، نضال الشمالي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١, ٢٠٠٦م: ٢٢٦

(٢) خطرة الطيف، رحلات في المغرب الأندلس، لسان الدين بن الخطيب , (ت٦٨٣هـ) تحقيق، د. أحمد مختار العباري، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، بيروت – لبنان، ط١ , ٢٠٠٣م: ١١٤.

(٣) ينظر: مفهوم الأدب، تزفيتان تـودوروف، ترجمة: محمد منذر عياش، دار الذاكرة، حمص – سوريا، ط٢, ١٩٩٠م: ٣٣.

فتوصلنا عن طريق هذا التحليل بأن الكاتب الحكائي في هذا البناء السردي كان يتسم بالأسلوب الحكائي المتميز في تقديم الشخصية السردية والأحداث، فهو يضيف إلى هذه الشخصية الحكائية لمحات من الوصف الأدبي الذي عن طريقة تبرز سمات الشخصية السردية بشكل أعمق وأكثر تأثيراً بالمتلقي.

يقدم الكتاب الأندلسيين بناء سردياً للشخصيات الحكائية في مقاماتهم وتأخذ عندهم الدور الكبير في تقديم الأحداث الحكائية وتبرز أهمية هذه الشخصيات عند الكاتب من خلال المكانة أو الأفعال التي تقدمها هذه الشخصيات. وهذا ما نلاحظه في مقامة (تحفة الألباب ونخبة الاعجاب) لأبي حامد الغرناطي، إذ يقول ((صاحب بلغار قد اتخذ ذراعاً يحمل على عجلة وبيضة لرأسهِ كأنها مرجل، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يدهِ، لو ضرب بها الفيل قتله. وكان خيراً متواضعاً، كان إذا التقاني يسلم ويرحب ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى حقوهِ رحمهُ الله، ولم يكن ببلغار حمام يمكن أن يدخل فيها إلا حمام واحدة واسعة الأبواب، فكان يدخل فيها، وكان من أعجب بني آدم لم أشاهد قط مثله)) [١].

أراد الكاتب في تقديم هذه الشخصية أن يعكس إلى المتلقي ((أن تلك الصورة مزيج غريب وغير متجانس من العواطف والأحكام فقد تكونفي الوقت ذاتهِ، تحمل مشاعر الاستهزاء والاستهجان والاستغراب من جهة وتطفح بمشاعر الاستحسان والتقدير والتعظيم من جهة أحرى)) [٢]. فقد نقل لنا الكات في هذا النص الحكائي صورة الشخصية فهي عملاق على الرغم من تمتعها بالقوة الجسمانية فهي شخصية اجتماعية تعيش في وسط المجتمع دون أن يظهر إي جانب عدواني عليهم وهذا ما نستدله من قوله (إذا التفاني يسلم ويرحب ويكرمني) فهنا يبرز الجانب الإنساني بهذه الكلمات المختصرة، ويصف الشخصية وبما يصدر منها من أفعال وأقوال في قوله (كان خيراً متواضعاً) فنلاحظ المفارقة عند هذه الشخصية من قوة وقدرة، وما تملكه من أسلوب تعايش بين الناس ومن ردة فعل في القتال فهي شخصية يظهر عليها

(١) تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، أبو حامد عبدالرحيم بن سليمان القيسي الأندلسي الغرناطي (ت٥٦٥هـ) , تحقيق، إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط١ , (د. ت): ١٥٣.

(٢) أوربا في مرآة الرحلة – صورة الآخر في أدب الرحل الغربية المعاصرة، سعيد بن سعيد العلوي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء – المغرب , (د. ط) , ١٩٩٥م: ١١ - ١٢.

الطابع الاجتماعي، حتى يكمل الحديث عن هذه الشخصية يقول عنها (كان من أعجب بني آدم لم أشاهد قط مثله), فقد قام الكاتب في هذا النص بدور السارد إذ أختار للشخصية الغريب والعجيب عن طريق مشاهدة الشخصية الخاصة في تلك المجتمعات، فهو يقوم بالسرد حول الشخصية وينتقل إلى مخاطبه وتسجيل ما لاحظه على الشخصية.

نلاحظ في هذه المقامة الكاتب يقدم الشخصية السردية وهي شخصية محورية متعددة الأدوار، تجمع بين الراوي البطل والمسافر والشاهد، مما يمنح النص الحكائي بنية سردية مرنة وحيوية. يتشكل فيها البناء السردي للشخصية عن طريق المزج الواقعي والعجائبي، وتوظيف السرد الذاتي والوصف التفصيلي، مما يعكس فضوله المعرفي ووعيه الثقافي. كما تؤدي الشخصية في هذا البناء السردي وظيفة محورية في تحريك السرد ونقل المتلقي بين العوالم، وتجسيد رمز الإنسان المسلم الباحث عن المعرفة في بيئة متعددة الثقافات. فقد أصبحت الشخصية في هذا النص عنصراً بنائياً فاعلاً في خلق نصٍ يجمع بين الرحلة والمقامة والعجيب.

فتوصلنا إلى أن هناك اختلاف في البناء السردي بين الشخصية السردية للمقامة المشرقية والشخصية السردية في المقامة الأندلسية، فهي تعد عنصراً مركزياً في البناء السردي وتختلف ملامحها ووظائفها في بنائها السردي بين المقامة المشرقية والمقامة الأندلسية، نتيجة لاختلاف السياقين الثقافي والاجتماعي في كل من الشرق والمغرب والإسلامي في الأندلس.

فالبناء السردي للشخصية في المقامة المشرقية عند بديع الزمان الهمذاني وعند الحريري وغيرهم من كتاب المقامة تتسم بطابعها الثابت والمكرر. أما عند كتاب المقامة الأندلسية مثل لسان الدين بن الخطيب والغرناطي وغيرهم من كتاب المقامة الأندلسية فهي تكون أكثر تنوعاً وأقل ثباتاً، وتتغير حسب المقامة وتعكس السياق المحلي والواقع الاجتماعي، وقد تكون شخصية ناقدة أو حكيمة فهي ليس بالشخصية العادية بل لها الثقل والأهمية في المجتمع.

الشخصية السردية في المقامة المشرقية تهدف إلى التسلية والوعظ، وهي وسيلة لإبراز بلاغة الكاتب وحيله اللغوية، عبر مغامرات متكررة. أما الشخصية في المقامة الأندلسية فهي تصبح أداة لنقد الواقع الاجتماعي، وعن طريقها يقوم الكاتب الحكائي بالكشف والفساد، والتعبير عن المعاناة، لا سيما في ظل الاضطرابات السياسية في المجتمع الأندلسي.

إنَّ الشخصية في المقامة المشرقية يكون دورها في تكوين الأحداث جامدة لا تتغير، تؤدي دوراً واحداً يتكرر نفس الدور في تكوين الحدث ويظهر عليه الطابع البلاغي. أما الشخصية

السردية في البناء السردي في المقامة الأندلسية، فهي أكثر واقعية وقابلة للتطور، وتؤدي دورها في البناء السردي فهي تقوم بعكس المواقف المختلفة والتفاعلات الجديدة مع السياق الاجتماعي.

تأثير البيئة الثقافية والاجتماعية على البناء السردي للشخصية، يكون التأثير على الشخصية المشرقية فيظهر التركيز فيها على النخبة الأدبية، الطرافة اللفظية، داخل بيئة كان اهتمامها بالفصاحة. أما الشخصية في المقامة الأندلسية فهي تعبر عن التحولات المجتمعية والسياسية، فتهتم بعكس صوت الناس وتعبير عن معاناتهم، لا مجرد شخصية تؤدي دور التسلية الأدبية فقط.

فاستنتجنا بعد هذا التوضيح بأن الشخصية السردية في المقامة المشرقية، تتجلى في صورة نمطية ثابتة، تتكرر بصفات محددة، كالدهاء والحيلة والفصاحة، وتوظف أساساً لاستعراض البلاغة والتسلية.

أما في المقامة الأندلسية، فالشخصية تظهر بصورة أكثر واقعية وتنوعاً، إذ تتغير تبعاً للسياق، وتعكس قضايا المجتمع وتعقيداته، وتسهم في نقد الواقع وكشف المفارقات الاجتماعية من عنصر بلاغي شكلي في الشرق إلى مرآة ناقدة في الأندلس، وترتبط بالتحولات الثقافية والظروف التاريخية لكل بيئة.

المبحث الثاني: بنية الزمكان السردية في المقامة المشرقية والمقامة الأندلسية

المقصود بهذا المصطلح هو الزمان والمكان في السرد يعني تفكيك العلاقة بين الأحداث والبيئة التي تجرى فيها. فهي الشكل الذي يتم فيه توظيف الزمان والمكان في النص السردي وعن طريقه يمكن خلق الوحدة الفنية والدلالية. فهما ليسا مجرد خلفيه للأحداث، بل عنصران فاعلان في تطور بناء الحبكة الحكائية. فعند توحيد هذين العنصرين في العمل الحكائي يكون العمل الحكائي متماسك لما يشكلان في تلك النصوص من وحدة البنائية [1]. تخذ العلاقة الزمان بالمكان طابعاً مجازياً نابعاً عن أهمية تداخلات العلاقة الافتراضية بينهما إذ ((تتضح العلاقة بين المكان والزمان، وهما متلاحمان ولكن كلا منهما يمكن أن يدل على الآخر، ويحدد عبرهما وجود لفظي في الرواية، وهما يشكلان مفتاحاً للتعرف على الزمان والمكان في الرواية،

(١) ينظر: دليل الناقد، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت – لبنان , (د. ت): ١٧٠.

على سيرورة الخط التاريخي والوجودي بتحديدهما)) [١]. سنواصل البحث عن هذه العلاقة في المقامة المشرقية والمقامة الأندلسية ونثبت الاختلاف بين البناء السردي في المقامتين، وكيف كان وتظف هذه العلاقة عند كتاب المقامة المشرقية، وكيف كان عند كتاب المقامة الأندلسية.

اولاً: - البنية الزمكانية في المقامة المشرقية:

البنية السردية لعنصر الزمكان في المقامة المشرقية اخذ طابع الازدواجية عن طريق ربط علاقة الأحداث حين وقوعها في الزمن الذي تحدث فيه، والمكان الذي تجرى عليه فهذا المكان يعد المسرح التي تعرض عليه هذه الأحداث.

ونجد هذه العلاقة بين الزمان والمكان في مقامات بديع الزمان الهمذاني في المقامة الأهوازية، إذ يقول فيها ((حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالأهواز في رفقة متى ما ترق العين فيهم تسهل. ليس فينا إلا أمرد بكر الآمال. أو مختط حسن الإقبال. مرجو الأيام والليال. فأفضنا في العشرة كيف نضع قواعدها. والأخوة كيف نحكم معاقدها. والشرب في أي وقت تتعاطاه. والأنس كيف نتهاداه. وفائت الحظ كيف نتلاقاه. والشراب من أين نحصله. والمجلس كيف نرتبه. فقال: أحدنا علي البيت والنزل. وقال آخر: علي الشراب والنقل. ولما أجمعنا على المسير استقبلنا رجل في طمرين في يمناه عكازة. وعلى كتفه جنازة. فتطيرنا لما رأينا الجنازة وأعرضنا عنها صفحا. وطوينا دونها كشحا. فصاح بنا صيحة كادت لها الأرض تنفطر. والسماء تنكدر. وقال: لترنها صغرا. ولتركبنها كرها وقسرا. ما لكم تتطيرون من مطية ركبها أسلافكم وسيركبها أخلافكم. وتتقذرون سيراً وطئه آباؤكم)) [٢].

نلاحظ البناء الفني الدقيق والسخرية الاجتماعية اللإذعة في هذا النص مما جعلة واحداً من ابراز النصوص عند بديع الزمان الهمذاني، فقد تتركز فيه بنية الزمكان السردي، فهي ليست خلفية للأحداث، بل عنصراً فاعلاً في تشكيل البناء السردي وكشف عن الشخصيات الاجتماعية وأبعادها النفسية، فقد وقعت هذه الأحداث في مكان واقعي مشهور وهذا ما جعل النص يأخذ طابعاً حيوياً وواقعياً. استعمل الكاتب عنصر المكان كفضاء سردي تفاعلي لا مجرد خلفية

(١) جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، عبدالحميد، المحادين، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط١ , ٢٠٠١م: ١٣٥.

(٢) مجاني الأدب في حدائق العرب: ٦ / ١١٣ - ١١٤.

سكونيه، مما أتاح للشخصية عرض مواهبه في تقديم الأحداث السردية، فقد توافق المكان ع الزمان في هذا النص وكون الكاتب عن طريقهما الحبكة الحكائية على الرغم من إن الزمن غير منضبط تاريخياً، ولكنه يفهم عن طريق الوضعية الاجتماعية وهي (التفاوت الطبقي، كثرة المتسولين، انتشار الفقر), فقد وظف الكاتب الانتقالات بين الحاضر والماضي مما يساعد على تقديم السرد بطريقة إيقاعية سريعة، وإبراز المفارقات. فأن عنصر الزمان والمكان في هذا النص الحكائي ليسا منفصلين، بل هم يشكلان وحدة سردية متداخلة، تجعل البناء السردي يمتلك الجو العام للحيلة والمخاتلة.

ونستنتج من هذا بأن الكاتب بديع الزمان الهمذاني لا يتعامل مع عنصر الزمكان في البناء السردي بوصفهِ مجرد إطار خارجي للأحداث، بل يجعل من هذا العنصر أداة فنية ووظيفية تكشف عن جوهر الشخصيات وطبقات المجتمع الذي تتكون فيه هذه الأحداث، مما جعلت الكاتب يتمكن من تقديم بناء سردي يتسم بالتماسك وفيه الحبكة المحكمة فيها التمثيل البلاغي والمفارقات الكثيرة، فهذا جعل هذا النص مفتوحاً على التأويلات الاجتماعية والفنية.

فقد وظف الحريري هذه العلاقة في نصوصه الحكائية، وهذا ما نجدهُ في المقامة البغدادية إذ يقول فيها ((رَوى الحارثُ بنُ همّامٍ قال: ندَوْتُ بضَواحي الزّوْراء. معَ مشيخَةٍ منَ الشّعراء. لا يعْلَقُ لهُمْ مُبارٍ بغُبارٍ. ولا يجْري معهُمْ مُمارٍ في مِضْمارٍ. فأفَضْنا في حديثٍ يفضَحُ الأزهارَ. الى أنْ نصَفْنا النّهارَ. فلمّا غاضَ دَرُّ الأفْكارِ. وصبَتِ النّفوسُ الى الأوْكارِ. لمحْنا عجوزاً تُقبِلُ منَ البُعْدِ. وتُحضِرُ إحْضارَ الجُرْدِ. وقدِ استَتْلَتْ صِبيَةً أنحَفَ منَ المَغازِلِ. وأضعَفَ منَ الجَوازِلِ. فما كذّبَتْ إذ رأتْنا. أن عرَتْنا. حتى إذا ما حضرَتْنا. قالت: حيّا اللّهُ المَعارِفَ. وإنْ لم يكُنّ معارِفَ. إعلَموا يا مآلَ الآمِلِ. وثِمالَ الأرامِلِ. أنّي منْ سرَواتِ القَبائِلِ. وسَريّاتِ العقائِلِ. لمْ يزَلْ أهلي وبعْلي يحُلّونَ الصّدْرَ. ويَسيرونَ القلْبَ. ويُمْطونَ الظّهْرَ. [1].

تعد هذه المقامة واحدة من المقامات البارزة عند الحريري، إذ تتجلى فيها قدرة الكاتب على المهارية في اللغة السردية، ويبرز عن طريقها الذكاء بطلها وعناصرها السردية الأخرى التي تستحق الدراسة مثل بنية المكان لكي يظهر دوره في محور تشكيل الحبكة الحكائية، والتفاعل بين عنصري الزمان والمكان وتأثير ذلك على البنية السردية والدلالية للنص. فأن عنصر الزمن

(١) مقامات الحريري: ١٢٤ – ١٢٥.

في هذا النص غير محدد تحديداً دقيقاً، فالكاتب يروي الأحداث بصيغة الماضي، مما يجعله يضفي عليه مسحة تراثية ويكون فيه البعد عن لحظة التلقي المباشرة، فقد اسهم عنصر الزمن بخلق مسافة بين النص والمتلقي، مما جعلهُ يتأمل المعنية الاجتماعية والأخلاقية، فقد اتسم هذا النص بإيقاع زمني سريع، إذ كان تقديم الأحداث بسرعة من العرض إلى الخاتمة، فقد اعتمد هذا الإيقاع في هذا البناء السردي على تكثيف السردي، والتوظيف للصور البلاغية الكثيفة، وفيه طرفة المواقف مما جعل عنصر الزمن داخل هذا النص فيه الحيوية والديناميكية.

ولقد لعب المكان دوراً بارزاً في هذا النص فهو المسرح الاجتماعي المفتوح للأحداث، مما أتاح إلى للشخصيات ممارسة فنونها البلاغية، فقد اكتسب هذا العنصر بعداً درامياً ساحراً، وهذا الدور الذي لعبه المكان مشتركاً مع الزمن إذ أصبح التفاعل بينها لازماً ولا يمكن الفصل بينهما، فيتيح هذا التفاعل تكوين فضاء سردي يعطي الشخصية التخلق وتظهر صفاتها وأحداثها.

توصلنا إلى إن بنية الزمكان في هذا النص ليست مجرد خلفية للأحداث، بل هما عنصران مركزيان لهما الدور الكبير في البناء السردي والدلالي، فالتفاعل بين الزمان والمكان شكل فضاء قصصي كشف عن طبيعة المجتمع وتناقضاته. فقد برز هذا البناء السردي عن براعة الكاتب في توظيف العناصر السردية كأداة للكشف عن الأحداث ليس كإطار للحكاية السردية.

ثانياً: - البنية الزمكانية في المقامة الأندلسية:

البنية السردية لعنصر الزمكان في المقامة الأندلسية اخذ طابعاً يختلف عن المقامة المشرقية، إذ يوظف الكاتب هذه العلاقة بين هذين العنصرين بطريقة محكمة تليق بالعمل السردي الحكائي الذي يقدمه الكاتب الأندلسي. ونستدل على ذلك في البناء السردي الذي قدمهُ ابن الخطيب في رحلاتهُ إذ يقول ((وبخارجهِ سوق جامعة يحشر إليها الناس ضحى، ويتقاطرون من كل مرمى يمثلون في صعيد واحد، قد خيمت تجارهم وضللوا، ولا ينقض الجمع إلا مع انقضاء بياض يوم. . . [1].

قدم الكاتب ابن الخطيب الأندلسي بناء سردياً في هذا النص الحكائي فيه بناء مزدوج بين عنصر المكان والزمان اللذان تربطهما علاقة مزدوجة في تقديم الأحداث السردية، فقد اتضح من هذه العلاقة الزمكانية التصوير الدقيق في بناء النصوص السردية، فقدم شق من الزمن وهو

(١) خطرة الطيف: ١٤٣.

وقت الضحى ليدل في هذا الوقت المحدد من النهار بعد شروق الشمس إلى ما قبل الزوال، فهذا الوقت له في نفس الكاتب دلالة سردية ووصفية مما جعله يختاره فهذا الوقت هو الذي يجتمع الناس فيه وتكون الحركة والنشاط التجاري والاجتماعي فيه. وكذلك له طابع آخر فقد تتسم الأجواء بالهدوء النسبي قبل ارتفاع حرارة الظهيرة، يعزز أجواء الهدوء والسكينة التي تسبق ازدحام السوق. أما المكان، فقد ذكرهُ بقوله (بخارجة سوق جامعة) فهنا أراد الكاتب أن يقدم هذا المكان الذي يتوافد إليه الناس من جميع الأماكن فهو مكان مفتوح حيوي نابض بالحياة. فقد أضاف إلى المكان وصف بكلمة (جامعة) فهنا يقدم له طابعاً رمزياً بالوحدة والتلاقي. فأن التكامل بين عنصر الزمان والمكان وقت الضحى وسوق جامعة يشكل في مخلية المتلقي صورة خيالية فيها الحيوية النابضة بالحركة التفاعلية الإنسانية. فيعود اختيار هذا الوقت وهذا المكان إلى كونه وقت شائع في ذلك المجتمع في البيئة الأندلسية، فيقدم الكاتب هنا بناءً سردياً فيه رؤية حضارية للمكان فهو مركز اجتماع وتلاقي بين فئات مختلفة في زمن مشترك.

وقد استنتجنا من هذا بأن لسان الدين بن الخطيب في هذا النص قد برز قدرته الوصفية العالية في توظيف عنصريِ الزمان والمكان ليتمكن من خلق مشهد حي في مخيلة المتلقي وعن طريقه تستشف دلالات ثقافية واجتماعية، يظهر طبيعة الحياة الأندلسية العامة ويصورها للمتلقي.

ويقدم الكاتب الاندلسي (أبي مروان الباجي) بناءً سردياً في نصوصهِ الحكائية تحمل في طياتها العلاقة بين الزمان والمكان يمكن عن طريقها أن يأخذ النص مكانته الفنية والجمالية، وهذا ما نجده في قوله ((وبعد أن استراح قليلاً من عناء عيذاب وصحرائها، كان عليه أن يتوجه إلى القاهرة. . . قد كنت سمعت بهذا الجامع وأريد الصلاة به، فسار إليه، فإذا فيه جماعة اجتمعوا لقراءة العلم، فصلى به الظهر والعصر والمغرب)) [1].

قدم الكاتب الأندلسي في هذا النص بناء سردي وظف فيه عنصر الزمكان والذي جعله يتسم بالحركية والرمزية، فالزمان ينتقل من التعب إلى الراحة، ومن الارتحال إلى الاستقرار المؤقت، ويقاس عن طريق أفعال مثل الاستراحة، السير، الصلاة. والمكان ينتقل من الصحراء القاحلة إلى المدينة النابضة بالحياة وفيها معاناة طلب العلم، فأن التفاعل بين عنصر الزمان والمكان يعكس رحلة الكاتب المعرفية والروحية، لا تقتصر على الجغرافية فقط بل تمتد إلى بنية الوعي

(١) رحلة أبي مروان الباجي إلى المشرق، مأخوذ من كتاب جذور المقتبس في تأريخ علماء الأندلس، لأبي عبدالله بن فرج بن فتوح الحميدي، تحقيق، محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١ , ٢٠٠٨م: ٦٦.

والهدف. فنلاحظ في هذا النص السردي تداخل عنصر الزمان مع عنصر المكان عن طريق الأبعاد بينهما ليشكل هذا التداخل لوحة فنية تعكس تحولات الرحلة في وجدان الكاتب، فقد بدأ الكاتب الروائي نصهُ الحكائي باستراحة بعد عناء ومشقة عبر عنها بقوله (عيذاب وصحراء) , وهو يعني بهذا ايحاء إلى الزمن المثقل بالمشقة، أما المكان فهو يعبر عن أهميته بأنّه ليس تنقل بين البلدان، بل يحمل دلالة رمزية تدل على انتقال التعب والعناء والمشقة إلى انتعاش الروح في الجامع الذي قصده الكاتب وكثيراً ما سمع به وتمنى الصلاة به، فهو عنده كمركز علمي وروحي في آنٍ معاً.

فقد استنتجنا من هذا بأن بنية الزمكان في هذا النص السردي هي تصور تجربة إنسانية عميقة بينها الكاتب عن طريق تجربته النفسية التي عاشها من تعب ومشقة إلى الطمأنينة والراحة النفسية، فعبر هذا العنصر السردي عن تجربة الكاتب في النص الحكائي وكيف صور انتقالاته النفسية من حال إلى حال.

فتوصلنا إلى أن عنصر الزمكان من العناصر المهمة في بناء الحبكة السردية فهو يقوم بدور كبير في تشكيل الأحداث وتوجيه دلالاتها، فقد يتجلى عنصر الزمكان في فن المقامة بوصفه عنصراً سردياً تتفاوت وظيفته وجمالياته عند الكاتب المشرقي والكاتب الأندلسي.

فأن عنصر الزمان في البناء السردي للمقامة المشرقية يكون عاماً ومتوحداً، ليس له ارتباط زمني دقيق مما يعكس الطابع التكراري والدائري للأحداث. فيكون البناء السردي معتمداً على إعادة إنتاج نمط ثابت في بناء الحكاية وتعرف الطابع الخداعي أو البلاغي، فيكون فيها عنصر الزمان خلفية خافتة للحدث. والمكان يكون دوره وظيفياً عن طريق التنقل بين الحواضر والمدن الكبرى، فهو سياق عرض المهارات البلاغية أو تنفيذ الخداع. لا يحمل بعداً رمزياً، فهو حاضنه للعمل السردي يقوم بتمرير الحبكة المركزية في أي نوع من مكان.

أما في المقامة الأندلسية فيكون ميلان عنصر الزمان في البناء السردي إلى تحديد الدقة، ويوظف لبيان التغيرات والتحولات في السياق التاريخي أو العاطفي، فيكون فيه بعداً تأملياً. والمكان في المقامة الأندلسية يبرز بوصفه عنصراً جمالياً، يكون وصفه بدقة وتفصيل، فيكون مشبعاً بجمال الطبيعة أو الرمزية الحضارية. من المدن الأندلسية التي يتحول فيها المكان إلى مرآة للشعور ويظهر تأثيره النفسي.

فقد تبين أن العمل السردي في المقامة المشرقية يقوم بتوظيف عنصر الزمكان فيها عنصراً ثانوياً

يقوم بخدمة هيكل البناء السردي للحكاية. أما عنصر الزمكان في العمل السردي في المقامة الأندلسية فيكون فاعلاً سردياً وجمالياً، يقوم بدورهِ عن طريقةِ يعكس التغيرات الحضارية والنفسية في الحضارة الاندلسية الأدبية.

وقد توصلنا إلى أن هناك اختلاف في توظيف عنصر الزمان في البناء السردي بين المقامتين عن طريق الرؤية الفنية التي تعكس تطور في وظيفة هذا العنصر من مجرد خلفية إلى بعد دلالي عميق في الحكاية.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين أما بعد. . .

أن دراسة البناء السردي التي تناولت المقامة المشرقية والمقامة الأندلسية، قد اتضح أن كلا النموذجين يعتمدان على تقنيات سردية يظهر فيها التماسك في البناء السردي لكنها تختلف في توظيف عناصر السرد. ففي المقامات المشرقية تقوم العناصر السردية بدوراً وظيفي داعم للخدعة والحبكة البلاغية، إذ يبقى كل عنصرٍ عاملاً في اطاره البسيط لتسلسل الأحداث. أما في البناء السردي في المقامة الأندلسية يتحول كل عنصر في البناء السردي إلى عنصر جمالي وتأملي يعكس طبيعة البيئة الثقافية والحضارية في بلاد الأندلس، فيظهر بناء النصوص أكثر زخرفةً وله تأثير عاطفي. وقد ظهرت هذه الخلافات عن طريق البيئة في كل مجتمع وأدبهِ. فإن تطور الأدب العربي عبر العصور وتأثير السياق الجغرافي والثقافي كان له دور في تشكيل أدوات السرد. فأن البحث والدراسة في هذا البناء لا تقتصر على فن المقامة في هذا العصر، بل تفتح آفاقاً واسعة تعرف عن طريقها التفاعل بين الأدب والبيئة. - اتضح اثناء الدراسة والبحث بين المقامة المشرقية والمقامة الأندلسية في عنصر الشخصية بأن هذا العنصر في المقامة المشرقية يبنى لخدمة الحبكة البلاغية والحيلة. وقد اتضح أن عنصر الشخصية السردية في المقامة المشرقية يؤدي وظيفة تقليدية ذات طابع خادع وساخر. - أما عنصر الشخصية في المقامة الأندلسية فهو يبنى لنقل حالة وجدانية أو تأملية، فقد اتضح دور هذا العنصر في البناء السردي فهو يقوم على التطور ليكون كاتباً فنياً يعكس البعد الحضاري والجمالي. وهذا التطور قد ساعد المقامة الأندلسية إلى الانتقال من الأسلوب البلاغي إلى التعبير الفني المركب. عن طريق كشف تأثرات البيئة الثقافية في تشكيل الشخصية الأدبيه. - فاستنتجنا عن طريق البحث والدراسة في عنصر الزمكان بين المقامتين، وقد اثبتنا بأن توظيف هذا العنصر في المقامة المشرقية قائم على الطروف العملية أو التعليمية. وقد يستمعل هذا العنصر كخلفية عامة غير محددة، فالبناء السردي يكون في هذا العنصر قائم على التكرار والحبكة والخديعة، فأن طبيعة المجتمع المشرقي تعكس طابعاً وظيفياً في النص يقابل الطابع الفني التأملي الذي نجده في المقامة الأندلسية. - اما عنصر الزمكان

في المقامة الأندلسية، فأن الكاتب الأندلسي يقوم على توظيف هذا العنصر بدقة أكبر مع أبعاد جمالية وتأملية، ويحمل هذا العنصر رموزاً ثقافية وشاعرية، والبناء السردي الأندلسي يميل إلى التكثيف الفني والوظيفي، فقد تميز بالطابع الفني التأملي أكثر من المقامة المشرقية. فقد ساهم هذا البناء السردي في تطور المقامة وتحولها من مجرد سرد قصصي إلى بناء أدبي متكامل يتضمن أبعاداً فنية وجمالية.

المصادر

١ - أوربا في مرآة الرحلة – صورة الآخر في أدب الرحل الغربية المعاصرة، سعيد بن سعيد العلوي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء – المغرب , (د. ط) , ١٩٩٥م.

٢ - بنية الحكاية في كتاب البخلاء للجاحظ، عدي عدنان محمد، ط١، عالم الكتب الحديث، العراق، ٢٠١١م.

٣ - البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) , دار ومكتبة الهلال، بيروت ,: ١٤٢٣هـ.

٤ - تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) , دكتور إحسان عباس (ت: ١٤٢٤هـ) , دار الثقافة، بيروت – لبنان.

٥ - تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، أبو حامد عبدالرحيم بن سليمان القيسي الأندلسي الغرناطي (ت٥٦٥هـ) , تحقيق، إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط١ , (د. ت).

٦ - جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، عبدالحميد، المحادين، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط١, ٢٠٠١م.

٧ - خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: ٨٣٧هـ) , المحقق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال - بيروت، دار البحار - بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.

٨ - خطرة الطيف، رحلات في المغرب الأندلس، لسان الدين بن الخطيب , (ت٦٨٣هـ) تحقيق، د. أحمد مختار العباري، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، بيروت – لبنان، ط١ , ٢٠٠٣م.

٩ - الخطيئة والتفكير من البنية إلى التشريحية، محمد عبدالله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ط٤, ١٩٩٨م.

١٠ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، القاهرة، الناشر مكتبة الخاتجي القاهرة , ١٩٦٩م.

١١ - دليل الناقد، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت – لبنان, (د. ت).

١٢ - رحلة أبي مروان الباجي إلى المشرق، مأخوذ من كتاب جذور المقتبس في تأريخ علماء الأندلس، لأبي عبدالله بن فرج بن فتوح الحميدي، تحقيق، محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١ , ٢٠٠٨م.

١٣ - الرواية العربية وتحولات السرد، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان، ط١، ٢٠١٢م.

١٤ - الرواية والتاريخ، نضال الشمالي، عالم الكتب الحديث، الأدردن، ط١, ٢٠٠٦م.

١٥ - السردية العربية - بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي -، د. عبد الله إبراهيم، الناشر: المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٦ - العمدة في محاسن الشعر وآدابها، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني (المتوفى: ٤٦٣ هـ).

١٧ - فن المقامات الأندلسي – نشأته وتطورة وسماته، د. قصي عدنان سعيد الحسيني، دار الفكر، ط٢ , عمان – الأردن ,١٩٩٩م.

١٨ - الكلام والخبر (مقدمة السرد العربي), سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء: ط١, ١٩٩٧م.

١٩ - لسان العرب، باب الباء، ابن منظور، دار الصادر بيروت، لبنان , ١٩٩٧م.

٢٠ - مجاني الأدب في حدائق العرب، المؤلف: رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو (المتوفى: ١٣٤٦هـ) , لناشر: مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت , ١٩١٣ م.

٢١ - المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نعمان بوقرة، جدارا للكتاب العالمي، عمان - العبدلي - جوهرة القدس، ط١, ٢٠٠٩م.

٢٢ - معجم المصطلحات (المصطلح السردي)، جيرالد برنس، ط١، ترجمة: عابد خزندار، مراجعة: محمد بريرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٢٣ - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، كامل المهندس وآخرون، مكتبة لبنان ساحة الصلح، بيروت، ط٢, ١٩٨٤م.

٢٤ - معجم مصطلحات نقد لرواية، د. لطيف زيتوني، ناشرون، بيروت – لبنان، ط١ , ٢٠٠٢م.

٢٥ - معجم مقاييس اللغة، ابن فارس الرازي، (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٦ - مفهوم الأدب، تزفيتان تودوروف، ترجمة: محمد منذر عياش، دار الذاكرة، حمص – سوريا، ط٢ , ١٩٩٠م.

٢٧ - مقامات الحريري، المؤلف: أبو محمد القاسم بن علي الحريري (المتوفى: ٥١٦هـ), الناشر: مطبعة المعارف، بيروت: ١٨٧٣ م.

٢٨ - النظرية البنائية في النقد الأوربي، صلاح فضل، دار الشرق – القاهرة، ط١, ١٩٩٨م.

٢٩ - نقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، حرير: جين - ب - تومبكنز، ترجمة: حسن ناظم - علي حاكم، المجلس الاعلى للثقافة، ط١، ١٩٩٩م.

٣٠ - النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت – لبنان، هـ ط١ , ١٩٨٢م.